

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ 29 ربيع الثاني 1446 هـ

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ لِلنَّصْرِ أَسْبَابًا وَلِلْخِذْلَانِ أَسْبَابًا، وَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا أَنْ يَأْخُذُوا بِأَسْبَابِ
النَّصْرِ وَعَوَامِلِ التَّمَكُّينِ، وَمُقَوِّمَاتِ الْعِزَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَأَصْلُ ذَلِكَ وَرُكْنُهُ الْأَسَاسُ تَوْحِيدُ
اللَّهِ ﷻ، وَالْبُعْدُ عَنِ الشَّرْكِ وَوَسَائِلِهِ، وَطُرُقِهِ وَذَرَائِعِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ﴾، وَنَصْرُ اللَّهِ ﷻ يَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، بِالْقِيَامِ بِتَوْحِيدِهِ، وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ، وَنُصْرَةِ دِينِهِ،
وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهِ سُبْحَانَهُ؛ فَبِهَذَا الْأَصْلِ مَهْمَا بَلَغَ مَكْرُ الْأَعْدَاءِ، وَعَظُمَتْ قُوَّتُهُمْ، فَهُمْ أَمَامَ قُوَّةِ
الْمُسْلِمِينَ حِينَئِذٍ لَا شَيْءَ يُذَكِّرُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَعَهُمْ بِمَعِيَّتِهِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي التَّائِيدَ
وَالْتَّمَكِينَ وَالنُّصْرَةَ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَهُوَ مَنْصُورٌ مَكِينٌ، عَزِيزٌ مَتِينٌ، قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ
حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «إِعْلَامِ الْمُوقِّعِينَ»: وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ لَا غَالِبَ لَهُ، فَمَنْ
كَانَ مَعَهُ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْلِبُهُ أَوْ يَنَالُهُ بِسُوءٍ؟ فَإِنْ كَانَ اللَّهُ مَعَ الْعَبْدِ فَمَنْ يَخَافُ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ فَمَنْ
يَرْجُو؟ وَبِمَنْ يَتَّقُ؟ وَمَنْ يَنْصُرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؟ فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِالْحَقِّ عَلَى غَيْرِهِ وَعَلَى نَفْسِهِ أَوَّلًا، وَكَانَ
قِيَامُهُ بِاللَّهِ وَلِلَّهِ لَمْ يَقُمْ لَهُ شَيْءٌ، وَلَوْ كَادَتْهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ لَكَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَتَهَا، وَجَعَلَ لَهُ
فَرَجًا وَمَخْرَجًا؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى الْعَبْدُ مِنْ تَفْرِيطِهِ وَتَقْصِيرِهِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ، أَوْ فِي اثْنَيْنِ مِنْهَا، أَوْ فِي
وَاحِدٍ؛ فَمَنْ كَانَ قِيَامُهُ فِي بَاطِلٍ لَمْ يُنْصَرْ، وَإِنْ نَصَرَ نَصْرًا عَارِضًا فَلَا عَاقِبَةَ لَهُ وَهُوَ مَذْمُومٌ مَخْذُولٌ،
وَإِنْ قَامَ فِي حَقٍّ لَكِنْ لَمْ يَقُمْ فِيهِ لِلَّهِ، وَإِنَّمَا قَامَ لِطَلَبِ الْمَحْمَدَةِ وَالشُّكُورِ وَالْجَزَاءِ مِنَ الْخَلْقِ، أَوْ
التَّوَصُّلِ إِلَى غَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ كَانَ هُوَ الْمَقْصُودَ أَوَّلًا، وَالْقِيَامُ فِي الْحَقِّ وَسِيلَةً إِلَيْهِ، فَهَذَا لَمْ تُضْمَنْ لَهُ
النُّصْرَةُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا ضَمَّنَ النُّصْرَةَ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، وَقَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، لَا لِمَنْ

كَانَ قِيَامُهُ لِنَفْسِهِ وَلِهَوَاهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَلَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ، وَإِنْ نُصِرَ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ إِلَّا الْحَقَّ، وَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ مَنْصُورٌ أَبَدًا؛ فَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مُحِقًّا كَانَ مَنْصُورًا لَهُ الْعَاقِبَةُ، وَإِنْ كَانَ مُبْطِلًا لَمْ يَكُنْ لَهُ عَاقِبَةُ، وَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ فِي الْحَقِّ لِلَّهِ، وَلَكِنْ قَامَ بِنَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ، وَلَمْ يَقُمْ بِاللَّهِ مُسْتَعِينًا بِهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ، مُفَوَّضًا إِلَيْهِ بَرِيًّا مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ، فَلَهُ مِنَ الْخِذْلَانِ وَضَعْفِ النُّصْرَةِ بِحَسَبِ مَا قَامَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَنُكْتَةُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدَيْنِ فِي أَمْرِ اللَّهِ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ الْبَتَّةَ، وَصَاحِبُهُ مُؤَيَّدٌ مَنْصُورٌ وَلَوْ تَوَالَتْ عَلَيْهِ زُمُرُ الْأَعْدَاءِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْمُتَأَمِّلَ فِي وَاقِعِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ يُدْرِكُ صِدْقَ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ فِي بَيَانِ أَنَّ الْأُمَّةَ الْكَافِرَةَ سَتَتَدَاعَى عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ كَمَا يَتَدَاعَى الْجِيَاعُ إِلَى قِصْعَتِهِمْ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قِصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». فَكُلُّ مَا يَقَعُ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ دُلٍّ وَهَوَانٍ، وَمَا يَحْدُثُ لَهَا مِنْ مَصَائِبَ وَبَلَاءٍ إِنَّمَا سَبَبُهُ الذُّنُوبُ وَالْآثَامُ، وَاللَّهُتُ خَلْفَ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا، وَالْإِعْرَاضُ عَنْ مَصْدَرِ عِزِّهَا، وَمَعَ كُلِّ ذَلِكَ فَالْخَيْرُ فِي الْأُمَّةِ وَفِي أَبْنَائِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالنَّصْرُ قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ».

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّهُ مَهْمَا تَلَا حَقَّتِ الْخُطُوبُ وَاشْتَدَّتْ وَتَنَوَّعَتِ الْمَصَائِبُ، وَتَفَنَّنَ الْأَعْدَاءُ فِي أَسَالِيبِ الْعَدَاوَةِ

وَالْبُغْضَاءِ، فَإِنَّا نُوْقِنُ أَنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ، وَأَنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ ضَعِيفٌ، وَأَنَّ الْغَلْبَةَ مَهْمَا طَالَ الْأَمَدُ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، أَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ»، عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّيِّئِ، وَالرَّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَتْرَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَاقِطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»، وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الصَّحِيحَةِ»، عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ [أَي: بَيْتَ مَبْنِيٍّ بِالطِّينِ، وَلَا بَيْتَ شَعْرِ وَلَا وَبَرَ] إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يَذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ». وَكَانَ تَمِيمُ الدَّارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ. وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي

هَرِيرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ». قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْمَنْهَاجِ»: الْغَرْقَدُ نَوْعٌ مِنْ شَجَرِ الشَّوْكِ مَعْرُوفٌ بِبِلَادِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَهُنَاكَ يَكُونُ قَتْلُ الدَّجَالِ وَالْيَهُودِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكِيمٌ، يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، يَمُنُّ ﷻ بِنَصْرِهِ عَلَى مَنْ نَصَرَهُ، فَمَتَى نَصَرَ الْمُسْلِمُونَ دِينَ رَبِّهِمْ، وَقَامُوا بِحَقِّهِ كَمَا يَنْبَغِي لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُمْ النَّصْرُ، وَإِنَّمَا أُدِيلَ عَلَيْهِمْ عَدُوُّهُمْ، وَسُلِّطَ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ لَمَّا نَكَلُوا عَنْ أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى. فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ مَهْمَا تَأَخَّرَ النَّصْرُ وَأُدِيلَ الْأَعْدَاءُ أَنْ تَظُنُّوا بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّءِ، وَأَنَّهُ لَا يَنْصُرُ دِينَهُ وَأَوْلِيَائِهِ، وَلَكِنْ ااعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَضَعُ النَّصْرَ وَالتَّوْفِيقَ فِي مَوَاضِعِهِ، وَكُلُّ مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَزِيمَةٍ، وَتَسْلِيطٍ لِعَدُوِّهِمْ، إِنَّمَا هُوَ بِذُنُوبِهِمْ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. وَلَمَّا أُدِيلَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «زَادِ الْمَعَادِ»: ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذَا الَّذِي أَصَابَهُمْ إِنَّمَا أَتُوا فِيهِ مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَبِسَبَبِ أَعْمَالِهِمْ، فَقَالَ: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّنِي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وَذَكَرَ هَذَا بَعِيْنِهِ فِيمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾، وَقَالَ: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، فَالْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ هَاهُنَا: النِّعْمَةُ وَالْمُصِيبَةُ، فَالنِّعْمَةُ مِنَ اللَّهِ مَنْ بَهَا عَلَيْكَ، وَالْمُصِيبَةُ إِنَّمَا نَشَأَتْ مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ وَعَمَلِكَ، فَالْأَوَّلُ فَضْلُهُ، وَالثَّانِي عَدْلُهُ، وَالْعَبْدُ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، جَارٍ عَلَيْهِ فَضْلُهُ، مَاضٍ فِيهِ حُكْمُهُ، عَدْلٌ فِيهِ قَضَاؤُهُ.